الاجتماع الإنساني

بسم الله الرحمن الرحيم

مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

الإجماع الإنساني

المحددات ومعايير الاحتجاج

رضا زيدان

الإجماع الإنساني

المحددات ومعايير الاحتجاج

تأليف: رضا زيدان

مراجعة لغوية: سليمان أبو عيسى

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٧
رقم الإيداع: ٢٧١٠٨/ ٢٠١٥
الترقيم الدولي: ٠-١٢-٦٥٤٥-٩٧٧-٩٧٨

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر (مركز براهين)، وإنما بالأحرى عن وجهة نظر المؤلف.

مركز براهين للأبحاث والدراسات
أرقام المبيعات: ٠١٠٦٤٨٠٠٠٩٤(٠٠٢) – ٠١٠١٥٥٧٧٤٦٠(٠٠٢)
بريد المبيعات: sales@braheen.com
صفحات المبيعات: braheen_books braheen.bookstore

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of Publisher.

Braheen Center for Research and Studies, Ltd.

إهداء

إلى زوجتي الكريمة...

المؤلف

«مركز براهين» لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية هو مركز بحثي مستقل، يعمل كمؤسسة غير ربحية مرخصة في لندن بالمملكة المتحدة، ويُعنى فقط بالعمل في المجال البحثي الأكاديمي لتوفير إصدارات متعددة (كتابية - مرئية - سمعية) على درجة عالية من الدقة والموضوعية والتوثيق يسعى من خلالها لتحقيق رسالته.

• رؤية المركز: عالم بلا إلحاد.

• رسالة المركز: المساهمة النوعية في تفكيك الخطاب الإلحادي ونقد مضامينه العلمية والفلسفية وأبعاده التاريخية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية وبناء التصورات الصحيحة عن الدين والإنسان والحياة ومعالجة النوازل العقدية انطلاقاً من أصول الشريعة ومحكمات النصوص كل ذلك بلغة علمية رصينة وأسلوب تربوي هادف.

BRAHEEN CENTER

for Studying Atheism
and Contemporary Issues of Faith

27 Old Gloucester Street, London,
United Kingdom, WC1N 3AX

• سياسة المركز: يعمل المركز بشكل أساسي على نقد أصول ومظاهر الإلحاد الحديث نقدا منهجيا، مع مراعاة البعد النفسي للمتلقين بمختلف فئاتهم، والحرص على تركيز النقد على الأطروحات الأساسية للخطاب الإلحادي الحديث. كما تنتهج مخرجات المركز أساليب الإفحام، والنقض، والدفاع وكذلك أساليب البناء والإقناع والهجوم وتقديم البدائل قدر الإمكان. وتنحصر مخرجات المركز بشكل رئيسي في ثلاثة مجالات عريضة: علمية، فلسفية، شرعية.

الموقع الرسمي: www.braheen.com

للتواصل والاستفسارات العامة: info@braheen.com

لمراسلة المدير التنفيذي: ammar@braheen.com

فيسبوك: fb.braheen.com تويتر: t.braheen.com

يوتيوب: y.braheen.com انستجرام: i.braheen.com

لماذا هذا الكتاب؟!

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد...

يكاد يطبق البشر على أن هناك ما يسمى بالفطرة أو الحس المشترك أو الإجماع الإنساني، وعلى أن الاحتجاج به أمر لا يحتاج إلى إثبات، حيث أننا وجدنا أنفسنا في هذه الحياة ونحن في قناعة بتلك الأمور.

ولكن في العقود الأخيرة، اجتاحت الأفكار الإلحادية الساحة الفكرية المعاصرة، بأفكارها التي تنكر كل ما هو أولي أو مجمع عليه لدى كافة البشر. فحتى حقيقة وجودنا، أصبحت عرضة للتشكيك، وتحتاج لتسويغ حتى تَثبُت. فالأمر لم يقتصر على إنكار وجود خالق للخلق، ولكن تعدى ذلك ليشمل كل الأفكار المشتركة بين البشر.

إن أضفنا لذلك حقيقة أن الأفكار الفطرية تحتاج لضوابط تحددها، وتفصل عنها ما ليس منها، ومعايير للاحتجاج بها، بحيث لا تورد في غير موضعها، اتضحت الحاجة لهذا البحث.

يسعى بحث (الإجماع الإنساني)، في إطار رسالة المركز لبناء التصورات الصحيحة عن الدين والإنسان والحياة، لضبط مفهوم الاحتجاج

بالأفكار الفطرية المشتركة بين كافة البشر عبر العصور، ويطرح بنيانا متكاملا للرؤية الصحيحة المنضبطة للكون من حولنا. فهو لا يدافع عن المفاهيم الدينية (كصحة وجود خالق للخلق)، ولكن يدفع الإلحاد ومنظريه للبحث عن ما يبرر إنكارهم للخالق داخل إطار الرؤية الصحيحة التي ينبغي أن ننظر بها للحياة.

يعد البحث هو الوحيد في بابه، ونفخر في (مركز براهين) بخروجه على يد زميلنا (رضا زيدان)؛ أحد أركان المركز، والباحث الجاد، الذي يضع الملف نصب عينيه، ولا يألو جهدًا في سد الثغر الهام الذي يقف عليه، فالله تعالى نسأل أن يكتب له مزيدًا من التوفيق والتسديد، وأن يتقبل منا جميعًا صالح الأعمال، إنه ولي ذلك ومولاه.

مركز براهين

مقدمة

مما لا شك فيه أن "أفكار وأفعال الناس تميل إلى أن يحكمها مجموعة من الأفكار العامة عن طبيعة العالم ومكان الإنسان فيه، ويمكن أن نطلق على هذه الأفكار العامة "صورة العالم" أو وجهة نظر الإنسان عن العالم"[1].

لكن منذ بداية القرن الثامن عشر بعد الثورة الجذرية التي شهدت ميلاد العلم التجريبي بصورته الحديثة تغير مسار التاريخ، وأصبحت الخبرات الإجماعية أو الأفكار العامة محل شك بالغ، فبالتدريج أدت نتائج العلم التجريبي المبهرة إلى استخدام وسائله لخلق صورة عالم جديدة، حتى أصبح العلم –علوم الإدراك والأعصاب هنا– هو المصلح المنتظر الذي سيقدم معيارًا أخلاقيًّا صحيحًا، نعم لم يكن ميلاد هذا العلم بلا سلف ولم يكن هذا الشك في الخبرات بلا تمهيد؛ فقد كان هناك فلاسفة شكاك ومساعٍ تجريبية قبل تلك الحقبة، إلا أن ما طرأ على العقل الحديث بعد هذه الثورة قد أثر تأثيرًا عظيمًا، وصل إلى محاكمة تصورات العصور الماضية كلها بهذه الصورة الحديثة، أو بشكل أكثر صراحة؛

(١) ولتر ستيس، الدين والعقل الحديث، مكتبة مدبولي، ترجمة وتعليق وتقديم: إمام عبد الفتاح إمام، ص٢٣.

حاكم العلم الخبرات الاجتماعية الثابتة على مر العصور كالدين.

أقدم في هذا البحث تقييدًا أو ضبطًا لهذه الخبرات الاجتماعية، أو المشتركات الإنسانية، وسأناقش مدى حجية هذه الخبرات، وهل لها دور في البناء العلمي؟ أو هل يقوم العلم على ميتافيزيقا اجتماعية؟

وبإجابة هذه الأسئلة سيعلم القارئ القيمة الحقيقية لهذه الخبرات، والعلم بطبيعة الحال، وسندعم الأخيرة -أي القيمة الحقيقية للعلم- بعرض سريع جدًّا لأشهر فلسفات العلم المعاصرة، كل هذا من أجل المقارنة بين القيمة المعرفية للخبرات الإنسانية الإجماعية والقيمة المعرفية أو المضمون التصوري الذي يقدمه العلم التجريبي أو الجماعة العلمية.

ليس الأمر مقارنةً بين عقل قديم وآخر حديث، بل بحث في طبيعة العقل الإنساني السليم، وكيف نجعل فكرة معينة من بنية العقل السليم؟ وكيف نحاكم خبراتنا ونقيمها؟ وهل يمكننا تبرير كل أفكارنا؟ وهل هناك أفكار مركزية تدعى أفكارًا فطرية؟ وما الفرق بين النقاش الكلاسيكي على مر التاريخ بين العقلانيين والتجريبيين وهذه المقارنة السابقة؟

سأقدم في البداية عرضًا وظيفيًّا للمدارس الشهيرة التي تكلمت عن المشتركات الإنسانية أو الخبرات العامة، أو -بمعنى أدق- التي وضعت معايير لهذه المشتركات، وهي معايير ضعيفة في نظري؛ لذا سأقوم بنقد

هذه المعايير ثم وضع معيارًا جديدًا يسمح لنا بالاحتجاج بمثل هذه المشتركات.

لكن بطبيعة الحال لابد أولًا من تأسيس فلسفي لهذا الاحتجاج أصلًا، وتبرير صحيح لكون هذه المشتركات حجة، وعرض للاعتراضات المركزية على هذه المشتركات من حقول مختلفة، ثم نقدها.

إن صحت الحجة، وصح نقد هذه الاعتراضات، فلابد من التسليم بمعيارية هذه المشتركات "بالضوابط الجديدة"، واعتمادها كصورة صحيحة للعالم، من بنية البشر الأصلية، وأن مخالفة هذه البنى شذوذ أو اضطراب فكري/أخلاقي.

وسنقدم بعض الأمثلة على هذه المشتركات كالاستقراء والاعتقاد في مقدس، داخل إطار استدلالي يتبين منه أن الاعتماد على أحد هذه المشتركات دون آخر مغالطة، آمل أن يكون هذا البحث مدخلًا جديدًا لنقد الإلحاد الفلسفي الحديث.

الفصل الأول
معنى الإجماع الإنساني

في معنى الإجماع الإنساني

الإنسان كائن اجتماعي، ولكل مجتمع ثقافته وأعرافه وعاداته، لكن توجد مسلمات عامة في كافة المجتمعات البشرية، لا يتصور معارضتها إلا لمرض أو بمجاهدة نفسية طويلة، كشك الشخص في وجود نفسه أو العالم، أو الشك في وعي الآخرين واعتبارهم دميً متحركة.

وقد حار الفلاسفة وعلماء النفس وغيرهم في هذه المشتركات البشرية، وتعددت التسميات واختلفت طرق النظر؛ ومنها: "الفطرة"[1]، و"الحس المشترك أو السليم"، و"المعتقدات العامة"، و"الموقف التلقائي"، و"الإنسان العادي"... وغير ذلك، لكن المتفق عليه مهما اختلفت المسميات أنها اعتقادات مبدئية بسيطة عن العالم والوجود يشترك فيها البشر، ولا يمكن إنكارها.

وبطبيعة الحال لابد من حدود لهذه المشتركات، فهناك وجوه أساسية ووجوه نفسية ووجوه علمية، فهل يمكن لنا أن نقول أن هناك مشتركًا بشريًّا نفسيًّا ومشتركًا بشريًّا علميًّا؟ فالإنسان العادي مثلًا يستخدم

(١) أرجو من القارئ أن يستحضر طيلة الكتاب أنني لن أقصد بالفطرة المعنى الديني في أي موضع في هذا البحث، وإن كان هناك تقاطع ضروري بين ما أقصده والفطرة في المفهوم الديني التي يطلب معناها عند أهل العلم، إلا أن للفطرة -بالمعنى الديني- تصورات وتبعات أشمل.

الاستقراء والاستنباط في تحصيله المعرفي اليومي (وجه أساسي للمعرفة)، ويؤمن بأن العالم منظم أو محكوم بقوانين، وآمن بأن كتلة الجسم ثابتة مهما كانت سرعته، وأن الأرض مسطحة (وجه علمي، فالكثير من المجتمعات قد آمنت بأن الأرض مسطحة)، ويشعر بعد تكرار أحد احتمالين بأن القادم هو الاحتمال الآخر[1] (وجه نفسي)، فهل المشتركات البشرية في هذه الوجوه على نفس المستوى من النظر والاحتجاج؟ وهل أصلا ذلك الإجماع أو شبه الإجماع حجة؟

أليست الفطرة أو الأفكار الحدسية معرَّضة لتصحيح العلم لها كلما تقدم كما حدث في كروية الأرض؟ أليست هناك نزعات نفسية خاطئة عند أغلب الفكر البدائي تجعله يسند الظواهر إلى قوى خارقة للطبيعة؟

هل الاتفاق البشري منذ القدم بين مجتمعات بعيدة عن بعضها تمامًا على قضايا معينة يجعل لهذه القضايا معنى متجذر أكثر من قضايا أخرى لم يحدث عليها مثل هذا الاتفاق؟ أي أن الصدق في هذه القضايا المتفق عليه وصل إلى المستوى الأعلى، فيصبح تكذيب هذه القضايا بمثابة "شذوذ" فردي؟

(١) كتكرار ظهور أحد وجهي العملة، فندفع شعوريًّا باحتمال أكبر لظهور الوجه الآخر، رغم أن احتمال الوجهين مازال كما هو.

لكن ما معيار الاتفاق؟ وفي أي المجالات يمكن قبوله؟ المعرفي أم النفسي أم العلمي؟ وماذا لو تعارض اتفاقان في مجالين مختلفين؟

ثم هل نقبل باتفاق أغلب البشر على حسن أخلاقي أو حتى ذوقي لشيء ما؟

سنناقش في هذا الجزء بعض الفلسفات التي تقول بهذه المشتركات وتجعل منها قيمة، وجوانب القصور فيها، وسنجيب خلال ذلك على ما يمكن تسميته "أخطاء فطرية"، ثم نتبع ذلك بمعيار لهذه المشتركات وكيفية استخدامه والركون إليه.

لنأخذ قضية بديهية فطرية وهي وجود العالم الخارجي وجودًا فعليًّا كما نراه وليس حلمًا، وهذه القضية من أشهر القضايا المعرفية الأولية التي يكتسبها الطفل، ومجرد الشك فيها سيوقع الإنسان في مرض أو تناقض، فما هو العاصم أو المعالج لهذا الشك؟ وهل هناك أي تدليل على وجود العالم الخارجي سوى اتفاق الناس؟

أ – لو نظرنا إلى مدرسة شهيرة باستدلالها على وجود العالم الخارجي من خلال الموقف الطبيعي أو موقف الرجل العادي وهي المدرسة الأسكتلندية –نسبة إلى الفيلسوف المهم توماس ريد (القرن الثامن الميلادي)– لوجدنا أن معالجة ريد للشك المطلق الذي أثاره هيوم وأثر

تأثيرًا شديدًا في هذه الفترة تقوم على الاحتجاج بمجموعة من الإدراكات والمواقف الطبيعية التي يعتنقها الرجل العادي في حياته اليومية عن وجوده ووجود العالم دون مناقشة أو تحليل، بما في ذلك الفلاسفة في غير أوقات تأملهم الفلسفي. [1]

يرى ريد في معالجته لشك لوك ومعاصره هيوم خصوصًا؛ أن الحقائق نوعان: ضرورية وحادثة، ومن أمثلة الأولى بديهيات الرياضيات، وقواعد المنطق، وقواعد النحو، ومبادئ الأخلاق، ونحكم عليها بالصدق وليست موضع شك، ووسيلتنا إلى تصديقها إدراكنا لها بالحدس، وأننا نحس بالتمزق والحيرة إن وضعناها موضع التساؤل.

ومن أمثلة الحقائق الحادثة، اعتقادي بوجودي وهويتي وديمومتي، وأن ما أدركه بحواسي حق، وأن العالم الفيزيائي مستقل عني ومستمر في وجوده حتى لو لم أدركه[2]، ويرى أن هذه الاعتقادات عبارة عن ميل راسخ في أنفسنا، ويعبر عنه بقوله: هذا الاعتقاد من فعل الطبيعة، وهي أيضًا لا غنى عنها في سيرة الحياة، فإن لم يعتقد الإنسان في هذه الاعتقادات

(١) محمود زيدان، نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، مكتبة المتنبي، ص٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص٤٥.

لن يستطيع التعامل مع العالم بنجاح.[1]

وفي نظر ريد أن الفيلسوف الذي يلجأ إلى العقل لكي يؤمن بما هو بيّن في ذاته وبديهي فلا يعرف ماذا يعني، فقضية وجود العالم الخارجي مثلًا يجب أن نسلم بها جميعًا في كل محاكماتنا العقلية.[2]

وينص ريد على حجية إجماع الأمم بقوله: إن إجماع الأمم والعصور من العامة والمتعلمين ينبغي أن يكون له على الأقل سلطان كبير، إلا إذا استطعنا أن نثبت وجود تحيز ما من العموم لإجماع ما.[3]

لكن هل وضع ريد معيارًا للتفرقة بين الإجماع الذي يدل على بنية بشرية فطرية والإجماع العرضي أو الإجماع المتحيز؟ في الحقيقة لا، فهو يرى أن الأصل أن الإجماع حقيقي ومبرر لنفسه، وعلى المتشكك أن يثبت وجود التحيز.[4]

وهذا هو موضع الخلاف بين ريد وهيوم، فهيوم يبدأ بكشف التحيزات، سواء كانت نفسية غير موضوعية أو بسبب اطراد العادة أو ضعف

---

(١) المرجع السابق، ص٤٦.

(٢) برندان ولسون، الفلسفة ببساطة، دار الساقي، ترجمة آصف ناصر، ص١٦٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٥٨.

(٤) المرجع السابق، ص١٥٨.

الخيال الإنساني.

وكذلك لم يحدد أي المجالات التي يمكن الاحتجاج فيها بإجماع الأمم.

إذن خصائص المشتركات الإنسانية عند ريد هي:

- الإدراك بالحدس.
- ميل نفسي للتصديق بها راسخ في بنية الإنسان طبيعيًّا.
- الشعور بالحيرة عند الشك فيها.
- أن تكون ضرورية من أجل التعامل مع العالم بنجاح.

ب - وقد أحيا جورج مور-الفيلسوف الإنجليزي المشهور والذي كان يطلق عليه فيلسوف الفلاسفة- فلسفة ريد في القرن العشرين، في محاولته تحليل مشاكل الفلاسفة، خصوصًا الفلاسفة المثاليين القريبين من إنكار العالم الخارجي، وقد أعطى لهذه المعتقدات التي يؤمن بها الرجل العادي فطرةً سمات مميزة، فهي ليست مشتركات إنسانية كما عند توماس ريد، بل هي مشهورات مجتمعية فحسب، ولم أجد له نصوصًا مباشرة في علاقة هذه المشهورات ببنية الإنسان أو ميله النفسي.

الجديد الذي أتى به مور أنه قال بأن بعض القضايا التجريبية صادقة يقينًا[1]، لا احتمال فيها ولا شك بشأنها، بعكس الشائع عند الفلاسفة

(١) لسول كريبكي موقف مشابه طرحه في كتابه "التسمية والضرورة".

من أن اليقين لا يلتمس إلا في الرياضيات والمنطق، وأن كل القضايا التجريبية احتمالية الصدق.

أما برهنته على وجود العالم الخارجي -كقضية تجريبية يقينية- فنصوصه الواثقة في هذا الموضوع من أشهر ما كتب في فلسفة القرن العشرين، مثل قوله: حين أرفع يدي إلى أعلى وأقول: هذه يد ثم أرفع يدي الأخرى وأقول: هذه يد أخرى، بذلك أكون برهنت على وجود العالم الخارجي.[1]

وقوله: أنا أعرف أن لي بدنًا من نوع معين هو البدن الإنساني، والبدن الإنساني بدن شخص له خبرات من نوع معين، كتلك التي أكابدها كل يوم وكل لحظة، وهناك أشخاص آخرون لهم خبرات شبيهة بخبراتي في نوعها، كما توجد أجسام مستقلة عني وعن إدراكي لها، وقد ولدت من سنوات خلت ولا زلت أعيش، وأن الأرض موجودة منذ قرون كثيرة جدًّا قبل الإنسان وأن الكواكب والنجوم تدوم في حركاتها في الفضاء حتى لو لم أرها... هذه القضايا صادقة يقينًا، بل يجب اتخاذها كنموذج للصدق، وأن أحكم بالكذب على ما يعارضها من أقوال الفلاسفة.[2]

---

(١) المرجع السابق، ص٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص٤٨.

الملاحظ في هذا النص أن مور أثبت قضايا من أنواع مختلفة بالحس المشترك، وهي:

١- الذات والحديث عنها وديمومتها.

٢- وجود عقل ووعي عند الآخرين رغم رؤية سلوكهم فقط.

٣- اطراد الحوادث.

٤- وجود العالم الخارجي.

٥- حركة النجوم والكواكب.

وما يلفت النظر هنا هو النقطة الأخيرة، فرغم أنها تجريبية مادية وقابلة للتغير، لكنها قضية مشهورة مجتمعيًّا؛ لذلك اعتبرها مور قضية من قضايا الحس المشترك، وسأتحدث عن طبيعة القضايا الأخرى عند نقدي لتصور مور للحس المشترك.

إن الإجماع عند جورج مور إجماع مجتمعي أو إنساني في عصر واحد فقط -على الأرجح- ويشترط فيه الإجماع التام، فمجرد الخلاف لا يسمح بأن تكون القضية من قضايا الحس المشترك، ولذلك "لم يعتبر

جورج مور وجود الله أو الحياة بعد الموت من قضايا الإدراك العام".[1]

ويرى مور أن من السخف الشك في القضايا المجمع عليها، ويقر بوجود حالات يقبل فيها الظن إذا صدرت عن شخص مصاب بفرضٍ ما، لكن الشخص السليم لا يمكن أن يشك في هذه القضايا[2]، فأي نظرية تعارض قضية يدركها الإنسان بالحس المشترك قال بها الفيلسوف الفلاني، فهي نظرية باطلة.[3]

ج- يعد كتاب "العقل واللغة والمجتمع" لفيلسوف اللغة جون سيرل من المحاولات المتخصصة في الانتصار لموقف الإنسان العادي، ولم يكن دافعه هو نقد الشك المطلق أو المذهب المثالي بل شيء أعمق، فقد حدثت تطورات بالغة الأهمية في الفلسفة والفيزياء، فالأخيرة تفجرت فيها ثورة النسبية ثم التأويل المخيف لميكانيكا الكم الأكثر معارضة للبداهة على الإطلاق[4]، أما في الفلسفة فظهرت كتابات كواين ومبرهنة اللاكتمال لغودل وبعض أفكار فتجنشتين.[5]

---

(١) المرجع السابق، ص٤٨.

(٢) نظرية المعرفة لزيدان، ص٤٩.

(٣) زكي نجيب محمود، موقف من الميتافيزيقا، دار الشروق، الطبعة الثانية، ص١٤٥.

(٤) أي تأويل كوبنهاجن.

(٥) للاطلاع على هذه المشكلات الفلسفية والأزمة التي خلفتها انظر: الفلسفة ومرآة الطبيعة

وأهداف الكتاب الثلاثة هي: توضيح العلاقة بين العقل واللغة والمجتمع، وتحديد الاختلاف والشبه بين تحليل فلسفي معين أتى به المؤلف والبحث العلمي، ووضع ملاحظات عن طبيعة الحيرة الفلسفية ومشكلات الفلسفة.[1]

يوضح الكاتب معتقدات الرجل العادي من خلال عرض لمفهومه "المواقف التلقائية"[2]، ومن أمثلتها الأساسية عنده:

١- هناك عالم واقعي يوجد بشكل مستقل عنا، وبمعزل عن تجاربنا وأفكارنا ولغتنا.

٢- نمتلك طريقًا إدراكيًّا مباشرًا للدخول في العالم بحواسنا.

٣- السببية هي علاقة واقعية بين الأشياء والأحداث في العالم.

ويرى أن في حياتنا اليومية نأخذ بهذه النظرات مأخذ التسليم، فهي خلفية مفترض صحتها قبليًّا، ويتكون جزء كبير من الفلسفة من الهجمات على المواقف التلقائية، وغالبًا ما يشتهر الفلاسفة التي

لريتشارد رورتي.

(١) جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، الدار العربية للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف والمركز الثقافي العربي، ترجمة سعيد الغانمي، ص٢١.

(٢) Default Position: الوضع الذي يوجد الحاسب الآلي عليه تلقائيًّا.

رفضوها، كما فعل هيوم مع السببية وباركلي مع المادة[1]، ثم يبرر صحة المواقف التلقائية بقوله:

أعتقد بشكل عام أن المواقف التلقائية صحيحة، وأن الهجمات عليها خطأ، وهذا يصح على الأمثلة التي ذكرناها، ومن غير المحتمل أن تكون المواقف التلقائية قد استمرت وواصلت جهودها عبر التاريخ الإنساني الوعر المليء بالعثرات طوال قرون، بل أحيانًا حتى طوال ألفيات، إذا كانت زائفة بالقدر الذي يزعمه الفلاسفة.[2]

ولا يريد سيرل أن يخلط بين المواقف التلقائية والحس السليم، لأن الحس العام "عنده" فكرة غير واضحة، ولكنها معتقدات يؤخذ بها على نطاق واسع ولا يمكن تحديدها في العادة، وبرغم عدم وجود خط فاصل بينهما –أي بين المواقف التلقائية والحس العام– يجد أن المواقف التلقائية أكثر أهمية من الحس العام، ويمثل للحس العام بقضية: إذا أردت أن يكون الناس مهذبين معك كن مهذبًا معهم.

فالحس العام في جزئه الأكبر قضية رأي عام لا يتعلق بالأسئلة الميتافيزيقية حول العالم الخارجي، والفرق المهم: أن المواقف التلقائية

(١) سيأتي مناقشة تفصيلية لذلك.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥.

خلفية، والخلفية سابقة على الرأي.[1]

ثم يقدم المؤلف أمثلة للمواقف التلقائية بتفصيل لا يخلو من فائدة، لكن الفكرة المركزية واضحة، والتي يظهر فيها السمات التالية:

١- معيار المواقف التلقائية هو الثبات البشري العام على التمسك بها، فخلال التاريخ الطويل المليء بالدواعي الكاشفة للحقيقة، يؤدي الاحتكاك والتجارب المتواصلة إلى تكذيب الموقف التلقائي، أما وأن هذه القضايا لم تكذب مطلقًا، فهذه قيمة موضوعية إلى حد كبير فيها.

٢- المواقف التلقائية سابقة على أي رؤية ذوقية، وأكثر إفادة وموضوعية.

٣- مثل سيرل لقضية اجتماعية على الحس المشترك، والحس المشترك الذي يقصده ليس هو الحس المشترك عند مور الذي يتداخل من بعض الوجوه مع المواقف التلقائية، بل يقصد ذوقيات اجتماعية لا معارف متفق عليها، وأود الإشارة هنا إلى أن معنى كلمة (common sense) من أكثر المعاني التباسًا، لأن أرسطو مثلا يطلق هذه الكلمة على الحس الباطن الذي تجتمع فيه جميع الإحساسات الآتية من الحواس الظاهرة[2]،

(١) المرجع السابق، ص٢٦.

(٢) مصطفى النشار، نظرية المعرفة عند أرسطو، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ص٥٣.

والمدرسة الرومانية تطلقها بمعنى آخر[1]، والمجتمعات المعاصرة تطلقها بمعنى ذوقي قريب مما يقوله مور، لكن مور قد وضع له إطارًا أضيق.

٤-يقيد سيرل المواقف التلقائية خلافًا لجورج مور؛ فقد صان الموقف التلقائي عن التجارب المادية المتغيرة التي تصحح نفسها، وضيّق مجال المواقف التلقائية بشكل محكم، كما أنه أهمل التغيرات الاجتماعية الذوقية والحاجات النفسية لذلك لم يدخل وجود الله في المواقف التلقائية مطلقًا.[2]

د- أما موقف شيخ الإسلام ابن تيمية فهو على العكس من موقف سيرل، فهو يهتم بالمعنى النفسي والاجتماعي عند البشر ليعرف به "العادة الإنسانية الصحيحة"، أما سيرل فيحدد الموقف التلقائي ثم يحذف الحاجات النفسية والاجتماعية.

ويظهر تعريف ابن تيمية للمشتركات الإنسانية من خلال مناقشته مع الفخر الرازي الذي يمثل الفكر الأشعري النافي لعلو الله، وأنه في السماء كما تضافرت الأدلة النصية على ذلك، وفيها يحتج ابن تيمية -كحجة

(١) راجع موسوعة لالاند للاستزادة.

(٢) لاحظ أن مور قد رفض إدخال وجود الله في حسه المشترك لأنه لا إجماع من مجتمعه عليه، بينما رفض سيرل يرجع إلى كون وجود الله قضية اجتماعية تختلف من شخص لآخر.

عقلية رئيسية- على صحة ذلك بأن الناس خلال التاريخ الإنساني يرفعون أيديهم إلى السماء ويشيرون إلى وجود الله في علو، لكن دعك من هذه النقطة واعتبر ابن تيمية يؤسس لوجود الله ابتداءً كعادة صحيحة، يقول:

العادة التي تعم بني آدم مع تباين حالهم وأديانهم واختلاف علومهم وإراداتهم لا تكون إلا عادة صحيحة، كما اعتادوه من الأمور الطبيعية والخلقية؛ فإنهم جميعهم يعتادون الأكل والشرب والنكاح واللباس، وكل هذه العادات صحيحة مبنية على علوم صحيحة ولها منافع صحيحة، كذلك اعتيادهم مدح الصدق والعدل والعلم ومحبته وتحسينه، وذم الكذب والظلم والجهل وبغضه وتقبيحه، هذه عادة صحيحة حسنة باتفاق الخلائق.[1]

فالعادة الفطرية الصحيحة عند ابن تيمية يصححها:

١- انتشارها على كافة المجتمعات البشرية، أو جماهير بني آدم.

٢- أنها عادة نفسية واجتماعية أصيلة في البشر، وتعبر عن حاجة ضرورية، وهذا ظاهر جدًّا في قوله الأكل والنكاح وغيره، وأظهر منه أن

(١) ابن تيمية، بيان تلبيس الجهمية، ط: مجمع الملك فهد ٦٠١/٤.

القضية المبحوثة أصلًا -الالتجاء برفع الأيدي إلى الله أو وجود إله بشكل عام- قضية نفسية اجتماعية.

وقد مثّل ابن تيمية على هذه العادة بوجود الله والميل إليه، فقال: ولهذا كانوا مفطورين على الإقرار بالصانع والدين له.[1]

هذه إطلالة سريعة على أهم ما كتب في المشتركات الإنسانية، وسننتقد هذه المعايير نقدًا فنيًّا كي نؤسس لمعيار أدق، لكن قبل ذلك لابد من عرض الاعتراضات العامة على فكرة اعتماد الحس المشترك أصلًا.

(١) المرجع السابق، ٦٠٢/٤.

الفصل الثاني
الاعتراضات على الاحتجاج بالإجماع الإنساني

أ-التصحيح العلمي المستمر للمشتركات الإنسانية:

حذر كثير من الكتاب من فكرة التمسك بأي قيمة أو صواب أمام الفتوحات المنتظرة على يد العلم التجريبي، لأن كثيرًا من هذه الأفكار الفطرية تم تكذيبها، فالحدس البشري كله لابد من أن يصحح باستمرار عن طريق العلم، وليس الأساس الصحيح للمعقولية عندهم[1]، فكل بناء نظري للعالم من خلال الحدس أو الفطرة أو الموقف التلقائي أو الحس المشترك أو العادة الإنسانية يجب اعتباره نظرة بدائية افتراضية، وعلى العلم أنه يواصل تصحيحه لهذه النظرة، مهما كانت التجارب معارضة للحدس Counter-Intuitive، ومن أشهر الاستدلالات على وهم الحدس اعتقاد كثير من المجتمعات بأن الأرض مسطحة، وتأويل كوبنهاجن لميكانيكا الكم، ومجرد استدلال الشخص بحقيقة ما باعتبارها فطرة كوجود الله مثلًا؛ سرعان ما يوجه إليه سلاح "إله الفجوات".

ومن الكتب التي تناولت هذا الموضوع كتاب: كل شيء بديهي (Everything is Obvious) لدونكان واتس المتخصص في علم الاجتماع، وفيه يناقش المؤلف موضوعية الحس المشترك في الاجتماع

(١) فالمعقولية الأوربية ابنة سياق شديد التعقيد، ومن ينتقد مراكز هذه العقلانية عليه أولًا أن يدرك هذا السياق وأصله.

البشري ويمثل له احترام التلميذ لمعلمه، وهي إجراءات معينة يلتزم بها الإنسان تمكنه من متابعة أنشطته اليومية على وجه صحيح اجتماعيًّا؛ فالحس المشترك عند الكاتب يختص بالقضايا الاجتماعية العامة أما العلم فمتخصص بالنظريات المعرفية العامة.

لكن في الفصل التالي يؤكد على أن الحس المشترك ليس معيارًا على نتائج العلم، وأن العلم هو المعرفة الأقوى التي تتأكد بالبحث المتواصل، خلافًا للحس المشترك الذي لا يمثل إلا مجموعة اعتقادات اجتماعية صادقة.

ثم يتعرض الكاتب لنماذج معارضة للحدس كميكانيكا الكم وغير ذلك، وكيف أن العلم يصحح من معارفنا المشتركة.

وبنحو مماثل ناقش لويس وولبرت مدى قوة العلم في تصحيح الحس المشترك في كتابه "طبيعة العلم غير الطبيعة"، ورفض أيضًا معيارية الحس المشترك.

أما عالم البيولوجيا الشهير إرنست ماير فيقول عن الحس المشترك: لقد تساءل الفلاسفة باستمرار حول ما إذا كان هناك عالم حقيقي خارجنا كما تخبرنا المعطيات التي تستقبلها أعضاء الحس لدينا، وما إذا كان هذا العالم مطابقًا لما تخبرنا به هذه الأعضاء ويخبرنا به العلم.

البيولوجيون المعروفون لي هم من واقعيي الحس العام، فهم يقبلون حقيقة أن العالم الخارجي موجود، ولدينا وسائل كثيرة جدًّا لاختبار معطيات الحس بواسطة الأدوات، والتكهنات المستندة على مثل هذه المعطيات تثبت صحتها على نحو يبين لنا أن الفائدة ستكون محدودة جدًّا لو تحدينا واقعية الحس العام أو العملي التي على أساسها يمارس البيولوجيون أبحاثهم.(١)

نلاحظ أن ماير رغم اعترافه بمعقولية الحس العام في علم الأحياء إلا أنه يجعل من العلم مصححًا لهذه المعقولية، كما أن ماير لا يعترف بإجماع أغلب المجتمعات على أن الله خالق كل شيء في هذا العالم، فقد وصف معارضي دارون بأنهم لم يتحروا قط البحث عن الحقيقة ومالوا إلى اعتقادهم، رغم أن الكثير من المعتقدات كالأرض المسطحة كانت تعتبر حقائق مطلقة.(٢)

يتضح من ذلك أن ماير رغم تسليمه بالحس المشترك، إلا أنه يعرّضه للتأييد أو التكذيب العلمي، وأن ماير يضع حقيقة "وجود العالم الخارجي" في مرتبة واحدة مع "كروية الأرض"، وأن قبول وجود عالم

(١) إرنست ماير، هذا هو علم البيولوجيا، عالم المعرفة، ٢٠٠٢، ترجمة: عفيفي محمود عفيفي ص٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص٩٣.

خارجي صححه المشاهدات العلمية ووسائلها، بينما رفض اعتقاد أن الأرض مسطحة للتكذيب العلمي، كما اعتبر مور حركة النجوم في نفس مرتبة وجود العالم الخارجي.

لكن ما هو ضابط قبول وجود العالم الخارجي ورفض تسطح الأرض؟ الحقيقة أن توماس ريد وجورج مور وجون سيرل وابن تيمية لم يضعوا معيارًا يسمح بقبول الأولى دون الثانية، وإن كان ابن تيمية قد اقترب كثيرًا؛ لذلك إشكال تصحيح العلم لاعتقاد أن الأرض مسطحة إشكال صحيح على موقف الرجل العادي أو الحس المشترك أو الموقف التلقائي أو العادة الإنسانية الصحيحة، وسأقدم مخططًا جديدًا لهذا الضابط لاحقًا.

بالمثل في تأويل كوبنهاجن لميكانيكا الكم، فهذا التأويل يعارض بشدة المشترك الإنساني القائل بوجود عالم خارجي مستقل عن الإنسان، وأن هذا العالم موجود ولو لم يدركه الإنسان، وسنفصّل في الصفحات الخاصة بميكانيكا الكم.

ب- أوهام الرجل العادي:

من أشهر الاعتراضات أيضًا على صحة الموقف العادي من العالم والمشتركات الإنسانية هو التشكيك في نظرة الإنسان العادي، سواء

كان هذا الاعتراض داعيًا إلى الحكمة الفلسفية المصححة أو العلم التجريبي لأوهام الرجل العادي.

يسعى الفيلسوف بلغة خاصة يزعم أنها أقرب للحكمة من معتقدات البشر، بل تسمى معتقدات الرجل العادي بأنها "واقعية ساذجة"، ويسارع الفيلسوف في التشكيك من صورة العالم الخارجي الذي نراه، أو إضعاف إيماننا برابطة ننظر بها للعالم كالرابطة السببية وسيأتي ذلك عند نقد معارضة الفلاسفة للنظرة العادية، وأحيانًا يستعين الفيلسوف بالمكتشفات التجريبية في عصره ليدلل بها على وهم النظرة العادية وسيأتي ذلك في نقد معارضة العلم التجريبي للنظرة العادية.

ج-مشكلات اللغة العادية:

تتم صياغة المعطيات التجريبية في قوالب لغوية، لكن يرى بعض التجريبين أن اللغة العادية ليست أمينة في توصيل المعلومة، بل مليئة بالانفعالات النفسية، وبناء على ذلك يجب استبعادها، ومن باب أولى استبعاد أي انفعال بالعالم واستبدال ذلك بلغة وصفية صارمة، وسيأتي ذلك في نقد التفرقة بين اللغة الانفعالية والوصفية.

د- لماذا يعتبر بإجماع المجتمعات البشرية أصلا؟

وهذا صلب الاعتراضات ولو فهم علة الاحتكام إلى المجتمعات البشرية سهل رد الاعتراضات الأخرى، وبالطبع يخلط الكثير بين مغالطة الاحتكام إلى الجمهور أو متابعة القطيع وبين استنباط بنية طبيعية في إدراك البشر من خلال اتفاقهم رغم اختلاف الظروف والعادات والفواصل الكبيرة بين المجتمعات، وهذا ما سنبدأ به الآن في تأسيس المعنى الصحيح للفطرة البشرية من وجهة نظرنا، والقيمة البالغة للفطرة وتأمين الاحتكام إليها وضابطها.

الموضوع	الصفحة

الفهرس

لماذا هذا الكتاب؟! ٨

مقدمة ١٠

الفصل الأول
معنى الإجماع الإنساني

في معنى الإجماع الإنساني ١٤

الفصل الثاني
الاعتراضات على الاحتجاج بالإجماع الإنساني

أ- التصحيح العلمي المستمر للمشتركات الإنسانية ٣٠

ب- أوهام الرجل العادي ٣٣

ج- مشكلات اللغة العادية ٣٤

د- لماذا يعتبر بإجماع المجتمعات البشرية أصلا؟ ٣٥

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث
اكتساب العادة الصحيحة

أ- كيف يكتسب الإنسان العادة الصحيحة وقواعد النظر للعالم؟ .. ٣٧

ب- استحالة الاستبطان واستحالة اللغة الخاصة ٤٣

ج- استحالة مواضعة القواعد ٤٣

د- الشك في المعيار المجتمعي ٤٣

الفصل الرابع
التشكيك في المفهوم

أ- مفهوم السببية عند هيوم ونقده ٧٢

- نقد كانط لسببية هيوم ٨١

ب- مفهوم العالم الخارجي عند باركلي ونقده ٨٥

ج- تشكيك العلم التجريبي في موقف الرجل العادي ٩٧

- ميكانيكا الكم والحدس الفطري ١٠٦

الفصل الخامس
نماذج للمشتركات الإنسانية المحتج بها

أ- الاستقراء ١١٥

ب- الدين ١٤١

الموضوع	الصفحة

ج- الأشكال الأخرى من الدين ١٥٠

الفصل السادس
هل الدين عادة إنسانية صحيحة؟

هل الدين عادة إنسانية صحيحة؟ ١٦٤

الفصل السابع
مقارنة بين الفطرة والعلم
(عرض نظريات العلم)

أ- نموذج توماس كون ١٨١

ب- نموذج بول فيرابند ١٩١

ج- نموذج بوبر ٢٠٠

خاتمة ٢٠٤

الفهرس ٢٠٦